

الإمام شرف الدين الطيبي مثال التكامل المعرفي

الدكتور: سبيع بلمرسلي

جامعة تيارت - الجزائر

ما أروع أن تتكامل العلوم وتتضافر في إنتاج المعرفة، وما أجمل أن يسلم السابق من أهل العلوم لِلآحق في ذلك الإنتاج فيُكَمِّل اللّاحقُ ما بناه السابق، وما أعظم أن يكون التكامل والإنتاج في خدمة الموضوع الواحد، فضلا عن أن يكون الموضوع مرتبطا بهوية المنتج وميراثه الفكري والثقافي! ولك أن تتخيل مردودية هذا التكامل وثراء ذلك الإنتاج في تحليل الخطاب إذا استفادت العلوم بعضها من بعض، واستُغِلَّت التجارب الناجحة في الفهم والتحليل، من حيث الفكرة ذاتها مادّة هذه المعرفة أولا، ومن حيث المنهجية التي تُبَحَثُ وتُعرَضُ بها هذه الفكرة ثانيا، فكيف إذا كان اللسان الدارس والخطاب المدروس عربيين، بل كيف إذا تعلّق الدرس بأرقى خطاب وأبين لسان: كلام الله تعالى ثم كلام رسوله-صلى الله عليه وسلم-! وكيف إذا كانت العقلية الدارسة للخطاب عقلية موسوعية جامعة بين مختلف العلوم، ومُلمّة بفنون اللغة التي هي موضوع هذا الخطاب وألته في آن ! هذه العقلية التي كادت تكون الميزة التي تميّز بها القدامى فاصطبغ بها نتاجهم الفكري وإبداعهم الأدبي!.

الكلمات المفتاحية: التبيان، النظم، البلاغة، المعاني، البيان، المعرفة.

Abstract

How wonderful it is when sciences are integrated and combined in the production of knowledge, and the finest that the ancient scientists transmit their production to the followers, and the latter accomplish what was constructed by their predecessors. And the biggest is to have integration and production in one service of the object, as well as being a subject related to the identity of the product and its intellectual and cultural heritage! You can imagine the cost-effectiveness of this integration and the richness of this production in speech analysis if science has benefited from the other, and has benefited from successful experiences in understanding and analysis, in terms of the idea itself which is the substance of this knowledge in the first place, and in terms of methodology by which this idea is presented on the other hand! And how, if the student language and the discourse studied are all Arabic; in addition, how if the text studied is the word of Allah (the Qur'an) or the word of his prophet (al-hadith) - peace be upon him!! And how, if the mental study of discourse is an encyclopedic mentality, a university between the different sciences, and different arts of language which is the object of this discourse and its tool at the same time! This mentality, which was almost the character of the ancients, is the tint of their intellectual productions and literary creations!

Keywords: Predecessors, followers, intellectual and cultural heritage, mentality

الإمام هزيم الدين الطيّبي مثال التكامل المعرفي _____ مجلة فصل الخطاب

وربما عدَّ الإمام شرف الدين الطيّبي (-743هـ)¹ واحداً من الأفاض الذين تميزوا بتلكم العقلية الموسوعية، فإنه وإن كان نجمًا من نجوم البلاغة وعلماً من أعلامها، فقد برع في اللغة والنحو وعلوم القرآن والسُّنة والقراءات بل وفي الحساب والرياضيات أيضاً! وقد استطاع أن يفيد من جهود سابقه بطريقة حكيمة حملت طابع النسقية والجمع بين مختلف الاتجاهات الكلامية والأدبية في البحث والدراسة وتحليل النصوص، وفق منهجية علمية رصينة، وتسلسل في المعاني والأفكار يشدُّ الناظرين، الأمر الذي جعل نتاجه العلمي مادّة ومرجعاً لمن بعده من الباحثين!

والإمام الطيّبي قامة علمية لا تقلُّ في وزنها وقيمتها عن كثير من القامات من أمثال الزمخشري والرازي والسكاكي وابن الأثير وغيرهم، بل ربما تميّز عنهم بكونه أفاد منهم أولاً فاجتمع له ما ورثوا من علم، ولأنه ثانياً جمع في درسه بين البلاغة واللغة والنحو والقرآن والسنة.. كل ذلك وفق منهج سنيٍّ غير متأثر بمذهب كلاميٍّ أو نزعة شخصية، وهو العارف بالعقليات وطرائق المتكلمين.. وكتبه الثلاثة: الحاشية على كشف الزمخشري المعروف بفتوح الغيب²، وشرحه على مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي المعروف بالكاشف عن حقائق السنن³، والتبيان في البيان⁴، هي عصارة ما جادت به قريحته في الفهم والبيان وجودة اللسان.. وحاشيته على الكشف أنفس الحواشي على الإطلاق كما قال غير واحد منهم الشوكاني⁵، وشرحه على المشكاة من أعظم شروح السنة، وعمدة الكثيرين بعده في فهمها⁶.

ولك أن تنظر إلى العقلية الجامعة وأثر إلمامها بالفنون في سبك العلوم وحبك المعاني واستخراجها من المكنون، وحسن عرضها والتدرج بها في الوصول إلى قلوب الطالبين والمريدين.. فإنك إن جئت إلى كتابه في البلاغة " التبيان في البيان"، وقد ألفه أواخر القرن السابع أو أوائل القرن الثامن، قبل أن يضع حاشيته على الكشف التي أعقبها بشرحه على المشكاة⁷، وربما كان تأليفه لهذا الكتاب أولاً لأنه يرى القاعدة والانتظام في الفهم أصلاً يعقبه بعد ذلك التطبيق والتحليل، ويؤكد تقديمه بين يدي شرحه للمشكاة بتقرير قواعد البلاغة في الجزء الأول من الكتاب، وقواعد الحديث ومصطلحه في الجزء الثاني منه، وهو ما يوحي بقيمة وأثر التقعيد في التعليم وفي الفهم والتحليل.. إن جئت إلى هذا الكتاب (التبيان في البيان) علمت مدى الأهمية التي يولمها لعلم البلاغة، وبخاصة (المعاني) و(البيان)، في فهم وتحليل الخطاب العربي، فضلاً عن أن يكون لله-تعالى- أو لرسوله-صلى الله عليه وسلم-، يقول في مقدمة شرحه على المشكاة:

"أما بعد: فإن تعلّم العلم من جملة الواجبات وأهمّ المهمّات، إذ لا شرف أفضل، ولا منقبة أكمل، ولا محمّدة أعلى، ولا مفخرة أقوى منه، لاسيما العلوم الدينية والمباحث الشرعية، إذ بها تحصل السعادات الأخروية، وبها تنتظم الأمور الدنيوية، ولا ريب أن تعلمها متوقف على معرفة العلوم العربية، والفحص عن اللطائف الأدبية، وما يتوقف عليه الواجب فهو واجب، وأعظم أنواعها منزلة وقدر، وأقدم أقسامها أصلا وفرعا، وأدقّ أركانها فهما ودركا، وأسبق أصنافها شرفا وفضلا، فهو علم المعاني والبيان، إذ النقل المجرد غير كاف فيه، بل يفتقر إلى الذوق السليم والطبع المستقيم، وإنه مفتاح الوصول إلى مراد الله من كلامه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه"⁸.

ويعتبر على طلبة علم زمانه زهدهم في تعلّم هذا الفنّ وانصرافهم إلى اللغة والنحو والصرف، فيواصل قائلا: "وطلبة العلم في هذا الزمان نبذوه وراء ظهورهم وقنعوا بنبذة من اللغة والصرف والنحو زاعمين أن من قدر على استعمال اللغات مراعيًا لقوانين الصرف والنحو كان في نهاية الفضل وغاية الكمال، كلاً والله، وكيف ذلك، وبه يعرف خواص تراكيب الكلام ومزايه ومحاسنه وبدائعه من الإخبار والإنشاء، والإضمار والإظهار، والتقديم والتأخير، والوصل والفصل، والتشبيه والاستعارة، والمجاز والحقيقة، والتصريح والكناية، والوجوه التي يقصد بها تحسين الكلام"⁹.

وأنت ترى كيف أن الإمام الطيّبي في هذا الاهتمام بعلمي المعاني والبيان يحذو حذو الزمخشري الذي يقول في مقدمة كشفه: "والواعظ وإن كان من الحسن البصري أو عظم، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجلاً قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهّل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقيح عنهما أزمّة، وبعثته على تتبع مظانّهما همّة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ..."¹⁰؛ كما يبيّن به المراد من قول السكاكي عند حديثه في مقدمة كتابه المفتاح عمّا ضمنه من علوم: "...وأوردت علم النحو بتمامه، وتمامه بعلمي المعاني والبيان..."¹¹.

وقد سبق إلى التركيز على علمي المعاني والبيان وأثرهما في نظم الكلام عبدُ القاهر الجرجاني من خلال كتابيه (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة)، فهو إذن التكامل المعرفي الذي يجعل الفكرة تنضج أكثر مع الأيام، فتكون ثمرتها أطيّب وأوفر.. ولئن كان الجرجاني قد أسّس لعلم البلاغة من خلال نظريته في النظم، فكانت بمثابة النفخة الروحية التي أعطته حيوية

الإمام هزيم الدين الطيّبي مثال التكامل المعرفي _____ مجلة فصل الخطاب

أكبر ودفعة أقوى، وكان منطلقه الشعر في بيان تلكم الحيوية والقوة.. فإن الزمخشري في كشفه كان المدرسة التطبيقية لمفهوم البلاغة والنظم في معناهما الواسع في القرآن الكريم، ليُعدَّ بحق مرجعاً في الدرس البياني لكلِّ مَنْ بعده..

وقد جاءت محاولة السكاكي التععيدية في مفتاحه لتذكّر بأصول هذا الفنّ، وتضبطه في قواعد وقوانين تعين الدارس والمتعلم على فهمه واستيعابه، في نزعة تجديدية حاول من خلالها جمع آراء سابقيه الجرجاني والزمخشري، وعرضها بطريقة مركزة ومختصرة، أملت طبيعة المرحلة، وقد نوع من شواهد شعرا ونثرا.. ليتلقّف شرف الدين الطيّبي هذا الإرث العظيم من هؤلاء النحارير، فيدرسه بعناية واهتمام، ويقف على مواطن القوة والإيجاب فينميها ويثريها، فكان منه التنظير أولاً من خلال كتابه (التبيان في البيان)، ليتوسع بعد ذلك في الإجراء والتحليل في حاشيته على الكشف (فتوح الغيب)¹² وشرحه للمشكاة (الكاشف عن حقائق السنن)، وأضاف الحديث النبوي الشريف شاهداً للدرس البلاغي ومجالاً للتطبيق، فتمّ للبلاغة بذلك استمدادها وتطبيقاً قرأنا وسنّة وشعرا !

ومظاهر إفادة الإمام الطيّبي من سابقيه ومعاصريه تععيداً وتنميّاً، فنّا وأدبا، واضحة جليّة في كتابه (التبيان)، وقد صرّح هو نفسه بذلك في مقدمة الكتاب¹³، وتعدّد مصادره يدلّ على أن الرجل كان على اطلاع ودراية واسعين مكّنّاه من الإمام بالفنّ وضبطه.

وقد أفاد الطيّبي أيضاً من منهج المحدثين والمشتغلين بعلم الحديث، ولا غرو في ذلك، فهو علّم من أعلام هذا الفن¹⁴، فكان يعتمد الوضوح في كتاباته والمنهجية العلمية في الطرح، ويسلك منهج النقل والأثر، فيستدل بالقرآن أولاً ثم بالحديث النبوي الشريف ثم بكلام الصحابة والتابعين ثم بكلام العرب شعرا ونثرا وحكما وأمثالا.

ولما كان الإمام الطيّبي مُحَدِّثاً فإن الإضافة الأبرز في بحثه البلاغي في كتابه هذا (التبيان) هي اعتماده الحديث الشريف للدرس البلاغي، فهو يستدل به للقاعدة أو الضابط البلاغي، كما يفهم نصّ الحديث الشريف وفق قواعد البلاغة.. وقد يستشهد ويمثّل بأكثر من حديث في المقام الواحد، ولك على سبيل التمثيل حديثه عن المجاز المرسل وتقسيمه له إلى خال من الفائدة ومتضمن للفائدة، وقد جعل الثاني وجوهاً منها إطلاق اسم السبب على المسبب، ومثّل له بأحاديث ثلاثة هي قوله عليه السلام لأزواجه: "أَسْرَعُكُمْ لِحُوقًا بِي أَطُولُكُمْ يَدًا" أي: "أكثركن عطاءً". وقوله: "المؤمنون تَكَافَأُوا دِمَائُهُمْ وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَذْنَاهُمْ، وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ" والأصل: هم أشدّاء على من سواهم مبالغين فيها متفقون فيما بينهم لا يسعهم تخاذل بعضهم بعضاً". وأما الحديث الثالث فقوله: "قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ" أي: "بين

أثرين عجيبين من آثاره، وهما داعيتا الخير والشر، أو على التسليم والانقياد، كما يقال: أعطى بيده، أي: أظهر الانقياد، ويقال: نزع يده من الطاعة، كما يقال: خلع ريقه الطاعة عن عنقه..¹⁵.

وقد جعل الإمام الطيبي إبراز البلاغة النبوية هدفاً يتقصده فيما يكتب، ليس فقط من خلال شرحه لكتاب (مشكاة المصابيح)، بل وفي كتابه (التبيان في البيان) أيضاً، والذي خصّصه لعلم البلاغة بفنونها الثلاث (المعاني والبيان والبديع)، ولعلّ الاستشهاد بالحديث الشريف والتمثيل به للقاعدة البلاغية يبيّن هذا الاهتمام، وإنّ ختمه الكتاب بحديث معاذ بن جبل-رضي الله عنه- دليل على ذلك، يقول قبل شروعه في بيان نكات الحديث وأساره وما فيه من بلاغة: "وإذ قد وقفت على البلاغة وأنواعها وجمعت الفصاحة بأقطارها فلنذكر الآن حديثاً صادراً عن صدر النبوة ومنبع الرسالة ليكون كالإجمال لهذا التفصيل وكالفهرس لهذه الفنون وعونا للمتصدي على وضع كلّ في مقامه وتمرّناً له إذا انتصب لاهتمامه؛ فنقول بالله التوفيق"¹⁶ ثم ذكر الحديث وشرع في بيانه¹⁷.

وبعد أن تحدّث عن البلاغة في حديث معاذ-رضي الله عنه-، واستخرج أنفس دررها متنقلاً بين فنونها الثلاث، ختم بالحديث عن الفصاحة في هذا الخطاب النبوي فقال: "أمّا النظر من جهة الفصاحة فنشير إليه مجملاً حذراً من السامة، وهو كما ترى كلّ كلمات الحديث سلسة على الأسلوب عذبة على العذبات، سليمة من التنافر والتعاضل، معرأة عن الغرابة والتعقيد، جارية كالماء في السلاسة، خالصة كالنسيم في الرقة، أفاضها تابعة معانيها، معانيها سابقة أفاضها، وكلّ ما صدر عنه -صلى الله عليه وسلم- صدر على هذا النهج، لكن لا يهجم على مكانه إلا خيال الشهم، ولا يفوز بمحاسنه إلا من دقّ فهمه حتى جلّ عن ذمّه الوهم، سبحانه من أيّده بأعلى مراتب البلاغة، وخصّه بأشرف درجات الفصاحة، ومن تأمل هذا الكلام المرتجل علم أنه -صلوات الله عليه- أوتي كنوز الحكمة، ومُنح فصل الخطاب، قال:

هذا الذي اضطرّ المعنى البليغ له وأصبحث طوعه جوامع الكلم
هذا هو المنذر الأمي أفصح من بالضاد ينطق وهي حجة الخصم
عليه من صلوات الله أطيها تبقى بقاء نعيم غير منصرم"¹⁸.

وقد بدا الإمام الطيبي في ما كتب عن البلاغة مُلماً بأقوال وآراء سابقه ومعاصره، فكان يحاول أن يجمع بين الأقوال والآراء في الموضوع الواحد، كما في باب الإيجاز أو التتميم أو الاعتراض وغيرها من الأبواب، وسواء صرّح بنسبة الآراء لأصحابها أم لم يصرّح؛ كما أن منهجه في الكتاب أظهر قدرته الفائقة على النظر والنقد، وبَيّن أنه صاحب شخصية مستقلة غير معتمدة التقليد بإطلاق، فهو يقول في كثير من الأحيان بآراء غيره كالزمخشري والسكاكي وابن

الإمام هرون الدين الطيّبي مثال التكامل المعرفي _____ مجلة فصل الخطاب

الأثير والقزويني، لكنه يخالف في أحيان أخرى ويبيدي رأيه ويقويه بالحجة والبرهان.. وهو وإن عدّه الناظر في كتابه هذا (التبيان) من المدرسة الكلامية بحكم انتهاجه منهج السكاكي والقزويني في التبويبات والتقسيمات، إلا أن الحقيقة الملموسة هي أنه كان يحاول دائما الجمع بين المدرستين الأدبية والكلامية في البلاغة، الجمع الذي يُبرِّز شخصيته واجتهاده، فهو قد سار على نهج السكاكي وخالفه في مواضع كما في حديثه عن مراعاة حال المتكلم، وفي التشبيه وفي البديع.. وتأثر في باب الفصاحة بابن الأثير تأثرا لا يخفى على ناظر.. وانتصر للزمخشري، وهو من المدرسة التطبيقية، في فهمه البلاغي لآيات كتاب الله-تعالى- لا في اعتزالياته- في أغلب المواضع، وخالفه في أخرى..¹⁹

وتجلّت محاولة الجمع في جانب آخر غير المضمون والمادة العلمية، فقد رته الفائقة على نسج الكلام وتزويقه وتحسينه تدلّ على أنه صاحب ذوق وأدب، غير أنه سلك مسلك البساطة وعدم التعقيد في العبارة، وحاول تسهيل الأسلوب، فلم يغلب عليه الجانب المنطقي كما عند السكاكي والرازي، ولم ينجح إلى تزويق العبارة وتنميقها كما فعل ابن الأثير من الأدباء..²⁰

ويمكن أن نقول إن الإمام شرف الدين الطيّبي مثال ونموذج في الردّ على ما اتهمت به البلاغة بعد السكاكي من جمود وانغلاق، وانحصار في الجملة، وتقنين لا يتجاوز القاعدة والشاهد والمثال! والقاعدة حاضرة حقّا عند الطيّبي، بل هي أصل عنده لا ينبغي أن يهمل أو يغفل، لكنها القاعدة التي لا تسلب الحرية في التفكير والنظر والتحليل، وكتبه الثلاثة كما عرفت (التبيان) والحاشية على الكشاف والشرح على المشكاة) خير ما يهديك إلى ذلك!

وقد أدرك الإمام الطيّبي جيدا أن البلاغة تعني فنّ الخطاب إنشاء وتوصيلا وتحليلا، ولذلك جاء نتاجه البلاغي على ذلك المستوى من القوة في الطرح والتحليل والجمالية في الأداء والعرض، ولم تثنه أبدا القاعدة عن الانطلاق في الوقوف على الأسرار واللطائف في النصوص والخطابات، وهو المتأثر بشيخه السكاكي، الذي كان يشرفُ بأن يُلقِّبه بـ(الشيخ) في كتابه التبيان فيقول دائما: قال الشيخ!.

ولذلك فإن تقنين السكاكي للبلاغة وجعلها قواعد وضوابط عُرفت بعلم البلاغة وسار عليها من بعده، لم يكن أبدا عند إمعان النظر عائقا في وجه انطلاق البلاغة، أو سيفا مسلطا على رقاب الأدباء كما قال بعضهم²¹! فلا السكاكي نفسه ألجم لسانه أو قلّمه عن التعبير عمّا في نفسه من معان وأذواق وهو ينشئ أو يحلّل الخطابات؛ أو أحجم عن الانفتاح على ما يمكن أن يفهمه النص أو الخطاب، أو زهد في أن يستعين في ذلك بما أوتي من آلة وعلوم بيان! ولك أن تنظر إلى بعض ما جادت به قريحته في تحليل بعض الخطابات منها قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا

أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿هود: ٤٤﴾ [في (المفتاح)²² لتعلم أن الأصل في البلاغة عنده هذه الشمولية في النظرة، وتلكم الحيوية والمرونة في الفهم والتحليل، وما التقعيد إلا لأن الظرف أملاه، والواصل الناضج في هذا الفن لا يمكن أبدا أن يفهم عن السكاكي ما رَمَوْهُ به فضلا عن أن يُلْزِم نفسه به!]

ولتبيّن هذا المعنى عند الإمام الطيّبي فإنه يكفي المستبين أن ينظر حاشيته على الكشف أو شرحه على المشكاة ليتيقن أنه أمام عقلية موسوعية سبقت إلى كثير من العلوم التي تطبع الدرس اللغوي المعاصر، فأمسكت بخيوطها وجمعت بين مغازيها لتُنتج فهماً راقياً ومؤسّساً في تحليل الخطاب! وكيفيك أن تنظر في (شرح المشكاة)، وقد أفرغ في كتابه هذا الجهد والوسع في تحليل الأحاديث النبوية تحليلاً بلاغياً يكشف عن قوة البيان النبوي وما يحمله من خصائص بلاغية، وقد استوعب الكتاب في تطبيقاته الفنون الثلاثة للبلاغة، فكان بحق موسوعة للبلاغة النبوية.²³ كيفيك أن تنظر تحليله للحديثين الأول والثاني، حديث الأعمال بالنيات²⁴، وحديث جبريل - عليه السلام - وهو الأول في فصل الإيمان²⁵، من مجموع ستة آلاف ومائتين وأربعة وتسعين حديثاً أثبتتها صاحب المشكاة، لتعلم قدرة الرجل في فهم وتحليل الخطابات والنصوص! فكأنك وأنت تقرأ له تمسك بزمام النص، تدرك أبعاده وأهدافه وآليات الوصول إليها، في انسجام وتفاعل بين النص ومنشئه من جهة وبين النص ومُتلّقيه من جهة أخرى.. فهو يقف مع الكلمة ودلالاتها المعجمية والميزة في اختيارها دون بدائلها الممكنة.. ويقف مع الجملة وما فيها من إسناد وتركيب مبرزاً أهم النقاط البلاغية فيها، منتقلاً من وجه إلى آخر من الأوجه المحتملة في ورود التركيب، ليوقفك على المزية واللطفية في ذلك الوجه المخصوص الذي ورد به التركيب..

فهو لا يغفل العدولات والانزياحات، ولا التراكيب والاختيارات، ولا الأنماط والتكرارات.. كلّ ذلك في ربط بين السابق واللاحق من الكلام، وفي تركيز واضح على اعتبار السياق في فهم الخطاب، لما له من أثر في إدراك المراد وتحديد المقصود؛ وهو لا يقتصر على السياق الداخلي وحسب، بل إنه يعمد إلى السياقات الخارجية من أسباب ومناسبات للقول، لعلمه بأهمية الظروف والمقامات في تحديد المعاني والدلالات..

ثم إن قيمة النص أو الخطاب لا تكمن فقط فيما أنتجته عقلية المنشئ لهذا النص وحسب، بل إنها تظهر وتبرز أكثر حين يعترف هذا المنشئ برأي الآخر، ولا ينقصه قدره أو حقه، وهو ما نلمسه عند الإمام الطيّبي في تحليلاته للنصوص، فهو يزين آراءه ويقوّيها بأقوال غيره في نوع من التواصل المعرفي أولاً، وتمكين للرأي والفكرة ثانياً، وتعبير عن قوة الشخصية التي

الإمام هزيم الدين الطيّبي مثال التكامل المعرفي _____ مجلة فصل الخطاب

تعترف للآخر بفضلها ثالثاً.. الشخصية التي تمكّن للرأي الذي تتبنّاه وتنتصر له، وتؤيّد بأقوال الآخرين من غير اتباع مطلق أو ذوبان كليّ.. فهي إذن الشخصية المتميزة والأسلوب المتميز..

ثم إن تنويعه للشاهد والمثال في تحليل القول، قرأنا وسنة وشعرا وحكما وأمثالا، يجعل المتتبع لا يسأم ولا يملّ، بل هو في ذلك كالمتنقل بين الرياض، المشتّم من رحيقها، المستمتع بجمال ونضارة أزهارها وألوانها، الملتذّ بطيب أصواتها.. فهو في انتشاء دائم لا يفارقه حتى يفارقها!

ولذلك ليس مبالغة في القول إن قلنا إن الإمام الطيّبي يمثل سابقة في الفهم الواسع للبلاغة وتطبيقاتها، أتت ما أسس له الجرجاني وطبقه في القرآن الزمخشري وقعد وبوب له السكاكي.. بل إن ملامح الدرس الجديد للبلاغة بمختلف التوجهات فيه، الأسلوبية والحجاجية والتداولية واللسانية وغيرها.. كل ذلك قد حاز شرف إدراكه وامثاله- إن لم نقل سبق فيه- الإمام الطيّبي في حاشيته على الكشف وشرحه على المشكاة! فهو قد جمع إذن بين الذوق والتحليل الذي طبع كتابات الجرجاني والزمخشري، وبين التعقيد والتنظيم الذي تبلور على يد السكاكي والخطيب القزويني ومن بعده.. فكان له في تحليله للخطاب التعقيد والذوق والتحليل، إضافة إلى ما في تحليله من خصائص وسمات عُدتّ سماتٍ وتوجهاتٍ للبلاغة الجديدة..!

وقد لا يكون أيضا من المبالغة الخلوص إلى القول إن الإمام شرف الدين الطيّبي مثال للتكامل المعرفي بين العلوم التي تُكوّن رصيدَ الباحث و ينهلُ منها في إنتاج المعرفة، فقد خدّم البلاغة بالقرآن والحديث واللغة والنحو، كما خدّم هذه العلوم بالبلاغة، وقد وظّف ما يحوزُه من علوم مختلفة في إنتاج وتحليل النصوص على نحو من الشمولية والقوة والتماسك، ربّما يحسّده عليه الدرس اللغوي المعاصر الذي يهدف إلى هذا النوع من الإنتاج الخطابي..!

وكان مثالا للتواصل المعرفي بين الأعلام، إذ استطاع أن يستوعب جهد سابقه من أمثال الجرجاني والزمخشري والرازي والسكاكي وابن الأثير وغيرهم ، ويوظفها في إنماء نتاجه وتحسينه.. بل هو التواصل بين الشيخ والتلميذ، الشيخ الذي يطمح لأن تكون صورة تلميذه أكمل ونجمه أسطع، لا الشيخ الذي يستعبد التلميذ ويسلبه حقوقه وحرّيته الفكرية! فقد استشار تلميذه الخطيب التبريزي في أمر جمع الأحاديث، فكان لتلميذه شرف الجمع والاستدراك على (مصاييح السنة) للبيهقي، وكان له هو شرف شرح مشكاة تلميذه! ولولا حسن الجمع والاستدراك لما حُسّن الشرح! كما أعانه ووجّهه في كتابه (أسماء رجال المشكاة)! وبالتواضع نفسه والإخلاص للعلم أرشد تلميذه محمد بن عيسى إلى شرح كتابه (التبيان)!

ثم هو تكامل من وجه آخر، إنه التكامل بين المدارس والاتجاهات، فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق الناس بها، ولذلك كان في أبواب البلاغة وفصولها يحاول أن يجمع بين المدرستين الأدبية والكلامية، ساعياً لاستلهاام الأنفع والأصلح مما جادت به كل مدرسة، في محاولة تأسيسية لفكرة الجمع والنسق، تضيقاً للخلاف وبحثاً عن الكمال في النتائج، وهي فكرة تطمح لها بعض الأقلام اليوم في زمن تعددت فيه المدارس والاتجاهات حتى فيما يزعمون أنه بلاغة جديدة!

مراجع البحث وإحالاته:

1- هو الإمام الحسين بن عبدالله بن محمد، شرف الدين الطيّبي، إمام مشهور. من أهل (توريز) أو (تبريز) من عراق العجم. و(الطيبي) نسبة إلى مدينة (الطيب)، وهي مدينة بين (واسط) و(الأمواز) في إيران. يُعَدُّ أحد أعلام عصره علماً وعملاً، قال عنه الحافظ ابن حجر: "قرأت بخط بعض الفضلاء: كان ذا ثروة من الإرث والتجارة، فلم يزل ينفق ذلك في وجوه الخيرات إلى أن كان في آخر عمره فقيراً، قال: وكان كريماً متواضعاً حسن المعتقد، شديد الرد على الفلاسفة والمبتدعة، مظهرًا فضائهم مع استيلائهم في بلاد المسلمين حينئذ، شديد الحب لله ورسوله..." اهـ. صنف الطيّبي في علم البلاغة (التبيان في البيان)، وفي الحديث (الكاشف عن حقائق السنن)، وهو شرح لكتاب (مشكاة المصابيح) الذي ألفه الخطيب التبريزي شارحاً به كتاب (مصابيح السنة) للإمام البغوي، وفي التفسير (فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب)، وهو حاشية على الكشف للزمخشري. كان يعقد مجلساً للتفسير من البكرة إلى الظهر، ومجلساً للحديث من بعد العصر، فلما كان يوم وفاته توجه إلى مجلس الحديث فدخل مسجداً عند بيته فصلى النافلة قاعداً وجلس ينتظر الإقامة للفريضة ففضى نحيبه متوجهاً إلى القبلة في يوم الثلاثاء الثالث عشر من شعبان سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة من الهجرة. ينظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، 1972، ج2/185-186، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د/ط، ج1/229-230، وأبجد العلوم (الوشى المرقوم في بيان أحوال العلوم)، صديق بن حسن القنوجي، تحقيق: عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية بيروت، 1978، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا: أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: د.علي يوسف طويل، دار الفكر، دمشق، ط1/1978، ج4/341.

2- رآها القنوجي شرحاً وقال عنها: "ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين من أهل توريز من عراق العجم شرح فيه كتاب الزمخشري هذا، وتتبع ألفاظه وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزيفها، وتبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة، فأحسن في ذلك ما شاء مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة". ينظر: أبجد العلوم، ج2/189.

3- ذكر مططفي بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني المشهور بحاجي خليفة أن الإمام الطيبي قبل أن يؤلف هذا الكتاب كان قد استشار أخاه (تلميذه) الخطيب التبريزي صاحب المشكاة في جمع أصيل للأحاديث الشريفة، وأنهما اتفقا على تكملة (مصابيح السنة) أولاً وتهذيبه وتعيين روايته، فتكفل بذلك الخطيب وما قصر فيما أشار عليه الطيبي به من الجمع، وبذل في ذلك وسعه، وأنه لما فرغ من إتمامه شمر هو (الطيبي) عن ساق الجِدِّ في شرح مُعضِّلِه- أي معضل المشكاة بعد أن أتمه الخطيب- بعد تتبع الكتب.. ينظر: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: مططفي بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني المشهور بحاجي خليفة، ج2/1700.

4- هو كتاب في علم البلاغة سلك فيه مسلك السكاكي والقزويني في التقسيم والتبويب، وأضفى عليه لمسته الخاصة في الكتابة والتأليف، عبَّر عنها د.عبد الحميد هنداي بالمحاولات التجديدية القيِّمة، عرض لها كما ذكر في رسالته للماجستير (الإمام الطيبي: تجديداته وجهوده البلاغية) وفي مقدمة تحقيقه لكتاب (التبيان). ينظر: شرح الطيبي على المشكاة، تحقيق د.عبد الحميد هنداي، ج25/1.

5- ينظر: البدر الطالع: ج229/1. وقال عنها في كشف الظنون: ج1478/2: "وهي أجل حواشيه- يقصد الكشف- في ست مجلدات ضخمة، قال: رأيت النبي- صلى الله عليه وسلم- قبيل الشروع أنه ناولني قدحا من اللبن وأشار إلي، فأصببت منه ثم ناولته -عليه الصلاة والسلام- فأصاب منه. أقول سماها فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرب". ونسب أحمد بن محمد الإدزوي إلى صاحب (كشف الظنون) أن بعض الفضلاء قال: "لا ينبغي أن يقرأ الكشف إلا مع حاشية الطيبي". ينظر: طبقات المفسرين، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط1/1997، ج277/1.

6- نقل د.عبد الحميد هنداي محقق شرح الطيبي على المشكاة جملة ممن تأثروا بالطيبي فنقلوا عنه، كان على رأسهم ابن حجر العسقلاني الذي قال عن الطيبي: إنه كان آية في استخراج الدقائق من الكتاب والسنة. وأن الحافظ قد نخل جلَّ تلك الدقائق في كتابه (فتح الباري)، وأنه لا يكاد يدع حديثاً مما شرحه الطيبي في المشكاة إلا يأخذ عنه فيه. ومنهم ابن حجر الهيتمي في كتابه (فتح الإله في شرح المشكاة)، والسيوطي في كتابه (عقود الزبرجد في شرح مسند الإمام أحمد)، والمباركفوري في (تحفة الأحوذى)، وابن علان الشافعي في شرحه لرياض الصالحين، والعيني في (عمدة القاري). ينظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح: شرف الدين الطيبي، مكتبة مزار الباز، مكة المكرمة-الرياض، ط1/1997، ص07.

7 - ينظر: الفنون البيانية في كتاب الكاشف للطيبي، ص18. ولتلميذه (علي بن عيسى) كتاب في شرح "التبيان" أسماه "حقائق البيان في شرح التبيان" قد يكون مختصراً لشرح الإمام الطيبي أمر تلميذه باختصاره كما ذكرت بعض التراجم. ينظر: الدرر الكامنة، ج2/186، البدر الطالع، ج230/1.

8 - شرح الطيبي على المشكاة: ج49/1

9 - شرح الطيبي على المشكاة: ج49/1

10 - الكشف: الزمخشري أبو القاسم محمود، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1/1998، ج96/1.

11 - مفتاح العلوم : السكاكي أبو يعقوب يوسف، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2/1987، ص06

12 - ذكر ابن حجر أن له تفسيراً للقرآن الكريم. ينظر: الدرر الكامنة: ج2/186، ونقله أيضاً الشوكاني في: البدر الطالع: ج1/230.

13 - لم يكن ما صرح به من أسماء أخذ عنهم حصراً لتلك الأسماء بدليل أنك تجده في الكتاب قد عاد إلى أسماء أخرى أخذ عنها من أمثال ابن أبي الأصبغ والرازي وابن سنان الخفاجي وغيرهم. وقد أشار إلى هذا أيضاً عبد الستار زموط في: كتاب التبيان للطبي تحقيقاً ودراسة، ص31.

14- له بالإضافة إلى شرحه على المشكاة كتاب (الخلاصة في أصول الحديث)، وهو مختصر مطبوع لخصه من بعض المصادر في الحديث، وعليه حاشية للشراف الجرجاني. كما أسهم بالمعونة والتوجيه لتلميذه الخطيب التبريزي في كتابه (أسماء رجال المشكاة). ينظر: كشف الظنون: ج1/720، وشرح الطيبي على المشكاة: ج1/26.

15 - راجع الأحاديث الثلاثة وتخرجاتها وهذه النصوص المنقولة عن الإمام الطيبي في التعليق عليها في كتاب: التبيان في البيان، تعليق: د. يحي مراد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1/2004، ص98-99.

16 - التبيان في البيان: الطيبي، ص261.

17 - ونص الحديث: قول معاذ-رضي الله عنه-: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، فقال: لقد سألتني عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل شعار الصالحين، ثم تلا: "تتجافى جنوبهم عن المضاجع" حتى بلغ: "يعلمون"(السجدة، 16-17)، ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: كُفَّ عليك هذا وأشار إلى لسانه، قلت: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم" وقال الطيبي: هذا رواية جامع الأصول عن الترمذي. ينظر: التبيان في البيان: ص261.

18 - التبيان في البيان: الطيبي، ص269-270

19 - ينظر: كتاب التبيان للطبي دراسة وتحقيقاً: عبد الستار زموط، ص57 وما بعدها.

20 - وإذا أردت الوقوف على تلك القدرة في تحسين العبارة فانظر إلى مقدمة كتابه (التبيان).

21- قال ذلك د. محمد عبد المطلب وهو يتحدث عن الانقلاب من المنهج الوصفي الذي كان يميز الدرس البلاغي والنقدي إلى المعيارية الخالصة التي اعتبر فيها البلاغيون أنفسهم أوصياء على الإبداع الأدبي من خلال توصيات قننوها وجعلوها سيفاً مسلطاً على رقاب الأدباء! ينظر: البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، سلسلة أدبيات، إشراف: د. محمود علي مكي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1/1994، ص258.

22 - مفتاح العلوم: السكاكي أبو يعقوب يوسف، تحقيق: د. عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1/2000، ص526-532.

23- ينظر: مقدمة المحقق د.عبد الحميد هندراوي لشرح الطيّبي على المشكاة، ج 1/46.

24 - ينظر: شرح الطيّبي على المشكاة، ج 3/417.

25 - ينظر نفسه، ج 3/421.